

مُسْتَقِبِلُ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِيِ الْعَالَمِ

الأستاذ: محمد بن إسماعيل

ترجمة الأستاذ: محمد محمد الخطاطي

كما أنه يصعب أن ندرك أن العالم العربي الذي هو مقسم سياسياً بصفة متبادلة ليس لكل بلد منه لغة رسمية خاصة تتميز عن لغة البلد الآخر . على أي طور وصلت اليوم لغة هذه البلدان وهل من الممكن أن تتخلص اللغة العربية الحديثة وما يتبعها من لهجات من هذا الضباب الكثيف المحيط بها ؟

من العربية الفصحى إلى «العربية المفرنسة»
يرى البعض — ونحن متفقون معه — أن اللغة العربية — حسب ما هي مستعملة في البلدان العربية — تميز بصفة عملية بثلاث مظاهر مماثلة في درجات ثلاثة هي كالتالي :

أولاً : العربية المكتوبة والمقرؤة وهي لغة المدارس والإدارات والتاليف الأدبي والعلمي والخطب

يواجهنا — في مجال الحديث عن اللغة العربية — مظهراً لغويان اثنان ، فنحن نجد أنفسنا أحياناً أزاء لغتين ، يطلق على الأولى — بصفة عامة — لغة فصحى أو أدبية ، ويطلق على الثانية لغة الحديث اليومي (أي العالية) . وتحصى هذه الأخيرة بالاجمال بعدد البلدان التي لها صلة بالعربية وهي عادة معرضة لنزوة لا يسامحها إلا الجهل المقاوم للغة الفصحى ، وكثيراً ما يكون هذا التضاهي في سائر اللغات .

إن العالم مقسم اليوم إلى كيانات سياسية تستعمل في كل منها بصفة رسمية لغة معينة غير أنه من الصعب أن ندرك أن سكان الولايات المتحدة الأمريكية يستطيعون التكلم باللغة الإنجليزية وأن سكان بلجيكا لا يتحدثون البلجيكية وأن نسبة كبيرة من سكان سويسرا يتكلمون اللغة الفرنسية .

1) نشر هذا المقال في مجلة (Jeune Afrique) عدد 799 ، 30 أبريل 1976 .
2) استاذ مبرز في الأداب ، وصاحب منهاج حديث لتعليم اللغة العربية للأوريين — والمسئول عن برنامج التكوين الدائم في جامعة باريس 8 .

بالفرنسية واعتبار أن الفعل في العربية يسبق الفاعل في الجملة النعملية على الرغم من هذا الخلاف فمن المستطاع أن تتطابق البنية الفرنسية والערבية .

عربة الفد

اللغة العربية قاسم مشترك بين الدول العربية جيماً وهي تزداد في الوقت الراهن — عملاً وتقحماً يوماً بعد يوم ، ويرجع الفضل في ذلك إلى عوامل متعددة ومتطرفة باستمرار لها أهميتها الكبرى وتأثيرها البليغ في توحيد هذه اللغة ، مما هي أدنى هذه العوامل ؟ يتعلق الأمر — في المقام الأول — بمسألة استحداث المدارس الجديدة التي تنمو وتتكاثر تكاثراً مدهشاً وعلمياً في جميع البلاد العربية والتي يعلم فيها — على الأقل — المواد اللغوية الصرف والمفاهيم الأدبية ويتم ذلك التعلم — بطبيعة الحال — بواسطة الفصحى ، وتتجدر الإشارة هنا إلى أن العامية لم تقتصر بعد بصفة مطلقة من المدارس الابتدائية غير أنه ليس لهذا الاتساع العامي أثر لا سيما وأن هذه المدارس تقصد أساساً إلى تعليم القراءة والكتابة اللتين يتمان بواسطه الفصحى .

ويتعلق العامل الثاني بأهمية الدور الذي اختت تضطلع به العربية الفصحى يوماً بعد يوم في البلدان العربية ، وعلى الصعيد العالمي هو يتركز على التطورات الاقتصادية والوثبات الجبار التي يرجع سببها في هذا المجال إلى الثورة البترولية بصفة خاصة وما تجلبه من عائدات وأرباح هائلة ، ولا يستطيع عالم اللغة — تبعاً لذلك — أن يصدر حكماً تقبيلاً بمقدار هذا المصدر المسمى في تطور اللغة العربية وانتشارها في العالم وإنما قصارى ما يمكنه فعله بشانه هو الاشارة إلى هذه الظاهرة من غير التحميس لها أو الاقلال من قيمتها ، وببقى الإبر أمراً لغويًا يعود لأسباب سياسية واقتصادية لا ينبعى اغفال أثرهما في هذا المجال .

لقد أصبحت اللغة العربية لغة رسمية في كثير من المنظمات الدولية — ولاسيما — في اليونسكو بجانب اللغات الكبرى الأربع : الإنجليزية ، والروسية ، والاسبانية ، والفرنسية ، ولشن كان الفريزيون ، والفرنسيون من بينهم ، كانوا يعتبرون العربية فيما يلى من جملة اللغات الميتة ولم يتموا إلا قليلاً بتدریسها شأنها أصبحت الآن عندهم محل اهتمام زائد وصار الناس منذ بعض سنوات يميلون إلى تعلمها والتعرف عليها والاتصال بها .

السياسية ، الخ وهي مستعملة بصفة عامة في سائر وسائل الإعلام والتبلیغ .

ثانياً : العربية « العامية » وهي لغة العلاقات اليومية المستعملة على الأخص في الأوساط الشعبية وينبئ أن نرى هل هي موحدة في كل بلد على حدة ثم على معيدي الوطن العربي كلـه .

ثالثاً : اللغة العالمية المبنية بالدخل الإنجليزي خاصة من اللغات الغربية — وهي على العموم — أكثر اللغات استعمالاً لدى الطبقات المثقفة والتبوطة المتخرجة من المدارس الإنجليزية بالنسبة للمشرق أو الفرنسية بالنسبة للمغرب وفي هذه الحالة كثيراً ما يختل هذه اللغة تعبيراً بل وجمل تامة بالإنجليزية أو الفرنسية ، وتستعمل هذه اللغة بطريقة عنوية ويسدون مراعاة للقواعد النحوية . ويجربنا هذا إلى التفكير بكيفية هامة لا يسمى بالفرانجي (FRANGLAIS) أي للتغيير عن كثرة الدخول الإنجليزي في الفرنسية وقد يقال في هذه الحالة كذلك (العرنجي (ARANGLAIS) أو المرنسي (ARAFLANCAIS) للتغيير عن نفس الغاية في كل لغة .

أنتا نلاحظ أن العمال المغاربة في فرنسا أو حتى في شمال إفريقيا (ومعظمهم أميون) يستعملون في كلامهم العادي — بصفة تلقائية — مجموعة من الكلمات أو التعبيرات محرفة تنحدر أساساً عن اللغة الفرنسية ، فنحن نجد عندهم مثلاً الأسبوع (Semaine) يتحول إلى (Chambre) والغرفة (Smana) والفندق (Chambre) تتحول إلى (Outil) ، والبطالة (Chômage) تندو (Tirs) يصبح (Chaumage) ولعبة سباق الخيل المعروفة (Tiercé) ينطقونها (Tirs) وهكذا ، ويضاف إلى هذا التحرير اللفظي عند المتكلمين الذين لهم المام كافٍ باللغة الفرنسية الآخطاء التي مردهما إلى تغير طبيعة الأسماء في التذكرة والتأشير ، فنحن نجد مثلاً أن نسبة كبيرة من الأسماء المذكورة في الفرنسية هي مؤلفة في اللغة العربية ، لذا نليس غريباً أن يؤخذ هذا العامل كلمة Avion (الطائرة) وهي اسم مذكر في الفرنسية ، وكذلك Chaise (الكرسي) المؤنثة من Soleil وهي مذكر في الفرنسية كذلك وهكذا .. ويرجع سبب ذلك كما سبق القول إلى اختلاف طبيعة هذه الأسماء في اللغتين . كما أنه من الملاحظ في حالة عدم اعتبار الجملة الاسمية التي ليس لها نظرٍ دقيق

بين الشعوب ، والارتفاع الشبه العام للمستوى المعيشي للسكان ، كل ذلك سيساعد ولاشك على ارتفاع المستوى الثقافي في هذه البلدان جيما .

كل هذه الظواهر تحمل على التفكير بأن العوامل الثلاثة المبينة أعلاه متوجهة بسرعة نحو التقارب فيما بينها لتصبح في النهاية أمرا واحدا .

ان الاجيال الجديدة من ابناء العربوبة في مخطوف البلدان العربية لم يعيشوا تحت السيطرة الفرنسية او الانجليزية ولكنهم شاهدوا الاصحاحات المقاولات السريعة لهذه السيطرة . ومؤلاء سيدعون انفسهم مهينين لاستعمال لغة مشتركة فيما بينهم ويمكن ان نشاهد هذه الظاهرة الان فيسائر البلدان العربية بما فيها الجزائر التي عرفت الحضارة العربية بها حالة حصار دام اكثر من قرن من الزمان ، حتى كاد يقضى عليها الى الابد وحيث بقيت اللهجة البربرية ثابتة بالرغم من كل ذلك .

ويبدو وجود اللغة متى وقع الاتصال في اطار منطق مزدوج من نمط صوتي ، ويقوم توحيد اللغة على تحقق الاتصال . انطلاقا من هذا التعريف يتأنى لنا القول بان وجود لغة واحدة موحدة لا زب فيه ، وهذه اللغة المشتركة تشكل نموذجا راسخا في الاذهان بصفة تجعله ينذر باستمرار الى بناء الجمل الدارجة متى ارتفع مستوى الحديث شيئا ما فوق ظروف الحياة العاديـة .

نحو لغة موحدة

على ان هناك مجالا من الاممية يمكن تراكم الصعاب فيه يوما بعد يوم دون ان تستطيع الزعم باننا سنجد لها حلولا ناجحة وهو مجال المصطلحات الذى لا يزال في الواقع عبارة عن ارض بور على ان هناك جمودا ماداما تبذل في هذا المجال وهي ذات اتجاهين اثنين . يتمثل أولهما في نشاط المجامع اللغوية وخاصة جمعي القاهرة ودمشق (3) اللذين بذلك وما زالا يبذلان جهودا طيبة في هذا الميدان . وبجانب هذا العمل ينمو

ان الدور الذى أصبحت تطبعه اللغة العربية في عالم اليوم وخاصة في العالم الغربى وهو الذى كان نبذها نبذة سيسهم حتما في تطورها والرفع من قيمتها واستقرارها التدريجي كما سيساعدها على فرض نفسها كلغة دولية بعد ان عم شيوخها سائر البلاد العربية واعترف لها بصفتها الدولية اعترانا دوليا .

اما العامل الثالث من هذه العوامل الثلاثة فانه يتمثل في هذا التداخل والتباين القائمين منذ امرق العصور بين البلدان العربية والذين أصبحا يتمان اليوم بسرعة بفضل تطور وتعدد وسائل المواصلات بالإضافة الى مسألة توسيع العلاقات من كل نوع بين هذه الاقطارات التي تزداد يوما بعد يوم ، غير أنه على الرغم من ان هذه الدول تتشكل ككيانات سياسية متقدمة فإنها ما تزال تعانى — في بعض الاحيان — من خلافات وأصطدامات عنيفة فيما بينها ولغة التخاطب والتناهى الرئيسية في تلك العلاقات جميعا هي بطبيعة الحال اللغة العربية الخاضعة لقواعد نحوية محكمة في حالة الكتابة او المميزة بنبرات صوتية خاصة في كل بلد عربي حسب الانتقام الجفارق للتكلم بها ، غير انه لا يصعب فهم هذه النبرات في اي بلد عربي .

وهذا امر طبيعي ، فاللغة الانجليزية مثلا لا يتحدث بها في بريطانيا العظمى مثلا يتحدث بها في الولايات المتحدة الامريكية . كما ان الفرنسية لا تستعمل بصفة مئالية في فرنسا وبلجيكا وسويسرا وكندا الفرنسية . والأمثلة متعددة في هذا المجال ، ليس غريبا اذ ان للاحظ في البلدان العربية بعض الخلافات اللسانية في حالة التنقل من بلد الى آخر .

وتزداد أهمية هذا العامل الاخير اذا علمنا حجم الدور الذى أصبحت تطبعه المدرسة وانتشارها الواسع بين الطبقات الشعبية نتيجة للسياسة التي تنهجها الدول العربية في ميدان التعليم بعزيمة كبيرة في محاولة اللحاق بالعصر وتعويض ما فاتها في هذا الضمار كما أن انتشار وسائل التعبير والتلبيغ وسهولة مداولتها

(3) يلاحظ ان الكاتب قد اغفل هنا ذكر مجمع بغداد الذي لا يذكر احد الجمود المحمودة التي يذلها وما يزال في خدمة المصطلح العربي على وجه الخصوص ، كما ان الكاتب اغفل كذلك ذكر مكتب تنسيق التعریف التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الذي يضطلع بهذه المهمة أساسا منذ ازيد من خمسة عشر عاما (المترجم) .

المثال — الذي يسمى في تونس قنطرة نجده في كل من دمشق والقاهرة يقال له « جسر » للتعبير عن نفس الدلالة وان كان اللفظ معروفا معرفة تامة في المدن الثلاث .

تلك أمثلة بسيطة أحببت الاشارة إليها وكما أشرت سابقا فإن توحيد اللغة العربية — الذي هو سائر نحو التحقيق — سيقضي شيئا فشيئا على الخلافات القائمة والتي ستتصبح مع الأيام ضئيلة جدا ان لم يبق لها اثر يذكر على الاطلاق .

نشاط لا ياس بمعاليته وان كان غير منظم وهو ما تقوم به الصحف والمجلات ومختلف اللقاءات والندوات التي تعقد بشأن اللغة العربية .

اما مسألة اختلاف المسميات وتباينها بين بلد عربي وآخر وليس له اي اثر على مسيرة اللغة العربية. حتى لوسمى شيء في تونس بغير ما يسمى به في القاهرة فان كلا الاسمين عربيان ومحفوظان ان لم يكونا شائعين في جميع البلاد العربية . فالجسر — على سبيل

